من صور الحب في ديوان قلب وتجارب : دراسة تحليلية نقدية

د.مجدي عبد المعروف حسين أحمد*
أستاذ مشارك النقد والأدب بقسم اللغة العربية – جامعة سنار

المستخلص:

ظلّ تيار الحب مزدهراً في السودان عبر عصوره المختلفة، حتى ليخيل لنا أن كل شعراء السودان غرَّدوا بالحب ونظموا فيه، وظلّت اتجاهاته الحسية والعفيفة تحتل مكاناً سامياً في وجدان الإنسان السوداني ، فجاء محجوب برهافة حسه ودبلوماسية كلمته وخط نمطًا أصيلاً بارزاً في تجربة العشق في الشعر السوداني ، فحاولت في هذه الدراسة أن أسلط الضوء على الحب في شعر محمد أحمد محجوب من خلال ديوانه" قلب وتجارب"،والفلسفة التي انتهجها في حبه في هذا الديوان .

الكلمات المفتاحية :

الحب – الشعر السوداني – قلب وتجارب – محمد أحمد محجوب

Abstract:

Love has been a dominant issue in Sudan during all ages to the extent that we could say that almost all poets of Sudan have written and both sensual and moral aspects of love have had a big place in the souls of the Sudanese community ,and then came Mahjoub with the delicateness of his feelings and the diplomacy of the words and made a prominent touch in Sudanese love poetry ,and so I tried to spot the light on the poetry of Mohammed Ahmed Mahjoub through his collection of poems "Qalb o Tjarub""قلب وتجارب" and have philosophy he used in this collection.

مقدمة:

ماهو هذا الحب الذي شغل الناس وسلب عقولهم ؟إنه يصعب تحديد معنى الحب،هل هو نوح وابتسام أو خفوق الأضلع عند اللقاء؟ أو تردد للمشاعر بين تصوير للغيرة والشك والحسد أو الضوء الذي يقبل شعر المحبوبة.

إن هذه الباقة المتنوعة من شعر محجوب من خلال ديوانه قلب وتجارب يلمسها القارئ المتصفح لهذا الديوان والذي يمثل الحب في أسمى معانيه فقد عاش تجاربه وانغمس في دهاليز روعته، ويعدّ ديوانه أصدق تعبير لرهافة ورومانسية حسه، فها هو محجوب صاحب التجربة الشعرية الرائدة في الشعر السوداني ، فهذا هو "رومانسي الشعر السوداني " ذو الخبرات النافذة ، والمواقف النادرة في حياة الأمة ، شاعر تنحني له الهامات وتتطلع إليه نخلات الكلم الطيب ، دبلوماسي عركته المواقف السياسية،وقانوني عرف حق النفس والوجدان ،وهندسي شكل بعبقريته مزاج الإنسان السوداني والعربي ، وإنساني قدم لنا هذا الحب الجميل .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة في أنها تناولت موضوعاً ذا علاقة بوجدان الإنسان وهو الحب ، فنحن أكثر حاجة له في حياتنا ؛لأنه يستثير الجمال في دواخلنا ، ويحرك أعصاب الدهشة في أجسادنا ، فيكون معه الاستقرار والسكن .

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى التوضيح بأن محجوب من الشعراء الذين أسهموا في إثراء وجدان الشعب السوداني بشعره الوجداني الرصين،وتجربته الرائعة في شعر العواطف والوجدان .

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي والتحليلي،حيث تعرضت لأشعار الديوان رصداً ووصفاً ومقاربة ومقارنة وأنموذجاً شفيفاً ومحاولة لطرح فكرة محجوب تجاه هذا النمط من الشعر.

تمهيد:

مؤلف الديوان محمد أحمد محجوب [1]:

ولد بمدينة الدويم 17 مايو(1908م) ، ونشأ في كنف خاله محمد عبد الحليم، وكان جده لأمه عبد الحليم مساعد، الساعد الأيمن لأحد أبرز قواد الحركة المهدية عبد الرحمن النجومي. وقد استشهدا معا في واقعة توشكي.

دخل شاعرنا الخلوة فالكتاب بالدويم،ثم تدرج فيها إلى مدرسة أم درمان الوسطي وأكمل تعليمه بكلية غردون التذكارية،حيث تخرج فيها مهندساً في عام(1929م)، ولم يكن ينقطع عن القرية طوال سني دراسته، حيث كان يفلح الأرض، ويجهد نفسه في ذلك حتى لا يسخر منه أقرانه الريفيون كما أورد ذلك في كتابه موت دنيا.

التحق بمصلحة الأشغال مهندساً عقب تخرجه مباشرة براتب قدره 13 جنيها شهرياً،وعمل بمدينة الخرطوم، وهو وإن أوضح ملف خدمته، مهارته ودقته في العمل وثناء رؤسائه عليه كمهندس، إلا أنه لم يشعر أنه كان يحقق ذاته في هذا المجال،وملاحاته لابن خاله عبد الحليم محمد كطبيب تنبئ أن استعداده الفطري كان يشده للدراسات الإنسانية وللجانب الأدبي منها على وجه أدق. فقد برز كشاعر وكاتب ثم سياسي بعد ذلك .دفعه هاجس الدراسات الإنسانية إلى تغيير مسار حياته العملية عندما التحق بكلية القانون عند إنشائها (1936م) وتخرج فيها،وزملاؤه الاقلاء كأول دفعة في العام (1938م) ، والتحق بالقضاء وظلّ به إلى عام (1946م)،وتركه للمحاماة حتى يستطيع أن يعمل في حرية أوسع بالسياسة التي هي الركيزة الثانية في حياة محجوب .

حثه علي ترك القضاء انعطافه للتبشير بآراء مؤتمر الخريجين التي كانت لا تنى تطالب الإنجليز بالحقوق الأساسية للسودانيين،وكانت تجربته كقاضٍ في شندي 1943م ثم عطبرة والأبيض تنم عن عسير المزاوجة بين القضاء ورفع لواء المؤتمر فانحاز للمؤتمر نصع نجم محجوب كسياسي في فترة الاستقلال (زعيماً معارضاً، ووزيراً للخارجية ثم رئيساً للوزراء عن حزب الأمة) غير أنه يبدو أن الحقبة الممتدة من (1927 إلى 1937م).. كانت من أهم فترات حياته إذ تبلورت فيها شخصيته الأدبية والفكرية وتحددت فيها معالم آرائه السياسية وشهدت هذه الفترة كتاباته الثرة في شتيت ضروب الأدب، والاجتماع والجمال والسياسة.

بدأ الكتابة في حضارة السودان(1927م)،(وتولى هذا في مجلة «النهضة» عام (1931م) ثم صارت كتاباته أكثر نضوجاً وتنوعا في مجلة الفجر (32 ــ 1937م) والنظرة العجلى لهذه المقالات توضح أن جلها كان يحتقب:الأدب، علم الجمال، الاجتماع فالسياسة، ومعظم هذه المقالات ظهرت في شكل كتب في فترة لاحقة.قد تتباين آراء الأجيال المتلاحقة في تقويم تلك المقالات،لكن لاشك أنها تضعه في طليعة كتاب عصره، تقرنه بمذهب العقاد التجديدي في الأدب وتشهد له بالنظرة المستقبلية الثاقبة،أهم من ذلك أنها تظهر اعتداده المبكر بالنفس واستقلاله بالرأي، ولعل جنوحه السياسي لاستقلال السودان (بإزاء فكرة الاتحاد مع مصر) يرجع جزئيا لاستقلاله هو بالرأي في هذه الفترة من حياته.

لا يبدو أن منصب وزير الخارجية الذي تقلده لأول مرة (1956م) كان غريباً على محجوب، ولا هو بغريب علي الباحث في سيرته، فقد كان في وفد الجبهة الاستقلالية الذي اتجه للأمم المتحدة (1946م) يدعو لاستقلال السودان.. ثم هو بعد ذلك في لندن ليكون «رابطة عصبة الشعوب الملونة» (46 ــ 1947م) مع كوامي نكروما وجومو كنياتا، ولفيف من الملونين من جنوب إفريقيا وجزر الهند الغربية. حياة شاعرنا السياسية مثيرة للجدل، على كل حال،وذلك لحدة الموضوعات التي كانت تطرأ علي الخارطة السياسية للسودان، ولالتباس محجوب كسياسي بتلك الموضوعات قبل أو بعد استقلال السودان. سواء تمثل ذلك في دخوله الجمعية التشريعية ثم استقالته منها(1950 م) عندما رأى عدم جدواها،أو التباسه بالمواضيع الملتهبة التي كانت تنتسج السودان ومن ثم البرلمانات التي تعاقبت بعد الاستقلال كقضية الجنوب، ثورة أكتوبر 1964م،إشكال طرد نواب الحزب الشيوعي، الدستور الإسلامي، انشقاق حزب الأمة،وخلاف ذلك مما أورث التوتر الذي تتباين حوله الآراء،لكنه له أدواره السياسية التي سترتبط باسمه إلى أن يفني الزمن كمخاطبته الأمم المتحدة بتكليف من العرب قاطبة بعد عدواني (1956 ــ 1967 م) وانعقاد مؤتمر القمة العربي صاحب اللاءات الثلاث بالخرطوم إبان توليه رئاسة الوزراء.. (1967م) واجتماع الملك فيصل والرئيس جمال عبدالناصر في منزله (أغسطس 1967م).. وما تمخض عن ذلك من حل مشكلة اليمن الشمالي، ومسعاه البين عند اندلاع الحرب الأهلية النيجيرية والتي انتهت بإعادة توحيد نيجيريا كما كان يأمل.. وقد شهدت له أروقة الأمم المتحدة ومنظمة الدول الإفريقية في هذا وذاك بأنه بارع الدبلوماسية، والإجادة المذهلة للغتين العربية والانجليزية.

ما ذكر آنفاً عن الاعتلاق السياسي، لا ينبغي أن يطغي على الذات الشاعرة في محجوب الذي استهواه الجمال، فوهب الجمال دواوينه «قلب وتجارب». مسبحتي ودني «الفردوس المفقود» والديوان الأخير الذي أثارت فيه ذكريات الأندلس كامن إشجانه، عندما زار اسبانيا يبرز المنهاج الذي كان عليه محجوب طيلة عمره التيار الإسلامي العربي الذي كانت تنبثق عنه جميع أعماله ومواقفه . وقد كان يرتاد آفاق المستقبل بحس شعري ثاقب بلغ مداه في بيته:

هذا زمانك يا مهازل فامرحي * قد عد كلب الصيد في الفرسان

إذ بلغت المهازل قمة مرحها عندما اعتقلته الجهات الأمنية وسجن في فترة الدكتاتورية الأولى (58 ــ 1964م) ،وعاودته الجهات الأمنية في فترة الدكتاتورية الثانية (69 ــ 1985 م).. وحددت إقامته في منزله تحديداً منع معه من تشييع جثمان صديقه وغريمه السياسي الرئيس إسماعيل الأزهري.. أكره على المنفي في انجلترا.. ورجعت النفس المطمئنة إلى بارئها الثلاثاء 1976/6/22 م .

أعماله الفكرية والأدبية: (2)

يعد محجوب أول رائد للشعر الحر في الأدب السوداني.قدم عنه الباحث «كمال الدين محمد».. رسالة ماجستير بعنوان: "محمد أحمد محجوب، أديباً"، إجازتها جامعة الأزهر (1982م)..وكذلك «محمد عمر موسى علي» رسالة دبلوم بعنوان:«محمد أحمد محجوب: لمحات من حياته السياسية» معهد الدراسات الإفريقية، جامعة الخرطوم (إبريل 1983م)،غير أن إنتاجه الفكري والأدبي مازال بحاجة للدراسة المتأنية الشاملة .إما أعماله فهي كالأتي:

(أ)الأعمال الفكرية:

1- الحركة الفكرية في السودان إلى أين تتجه؟.... الخرطوم 1941م .

2- الحكومة المحلية في السودان.. القاهرة 1945م .

3- موت دنيا (بالاشتراك مع عبدالحليم محمد ...(القاهرة 1946م .

4- نحو الغد.... الخرطوم 1970م .

5- وظهرت له باللغة الانجليزية Democracy on trial :

(الديمقراطية في الميزان) لندن 1974م .

(ب) دواوين شعر :

1- قصة قلب .... بيروت 1961م .

2- قلب وتجارب ...بيروت 1964م .

3- الفردوس المفقود... بيروت 1969م .

4- مسبحتي ودني ....القاهرة 1972م .

(ج) هذا عدا المقالات والخطب المتعددة داخل البرلمانات السودانية المتعاقبة أو في أروقة الأمم المتحدة ومنظمة الدول الأفريقية.

الحب في شعر محجوب :

ساحة الحب عند شعراء السودان ساحة عريضة ، فبعضهم يسير في دروبه القديمة التي تتحدث في تجريد عن اللوعة والأسى والهيام والجمال والحب ، وقد تتفلت بعض الصور العصرية ، كقول الشاعر محمد محمد علي :

ألا هاتها يا عيون الهوى * فآخر كأسي في يديك

لآ ليت ألا أذوق الطلا * ولا أرفع الكأس إلا إليك

ومن ذا يرد تحية كأس * بمثل ابتسام على شفتيك

وحقك ما ذقتها خمرة * تثير المفارح إلا لديك (3)

على أنهم قد أسرفوا حين مزجوا حبهم بالشهوة،وحين حولوا الجسم عندهم إلى مائدة للطعام والشراب،كقول محي الدين صابر في مجموعة لم تنشر،كما أوردها د.عبده بدوي:

فلقد شربتك كالســــــلافة مرة * ووردت راعشة دمي فــسقاك

وطعمت كالمجنون جسمك جائعاً * ونهبتني ... يا نــجوتي وهلاكي

يا نبعـــــــــة عريانة يا غابة * عذراء في الأحراش والأشواك (4)

وبعضهم بدأ شعره ممتزجاً بأحاسيس لا يشوبها الشهوة والتفلت،ومن ذلك قول إبراهيم عمر الأمين :

وفارعٍ من بني الأعراب ممتلئ * كأنّ أعضـــــــاءه خطت بمقياس

بدا بوجـــــــــه كأن الله أودعه * نصف الجمال وأبقى النصف للناس

حلو أكاد أرى في مقلتيه دمي * وفي تلـــــــــــفته ترديد أنفاسي

ما أهلتني التي تسعى ومقودها * في غير كفـــــــي لأدعوه لائناسي

فسرت عنه شجي القلب نضو هوى * وسار عني خلياً قلبه ناسي (5)

فالحب يقتحمه اقتحاماً،فهو لا يجرو أن يسد قلبه دونه،فقد كان يحسب أن الهــوى ورد؛ ولكنــه تبينــه صــعابا دونهــا الهلاك،وبالرغم من ذلك فهو يسعى في دروبه ويتعلق بمشيئة عشقه، فكل ما في الدنيا مقرون برؤيا الحبيب،وفي ذلك يقــول إبراهيم عمر الأمين:

أهواك لا عن رضـــــى أو عن طواعـــية * مني ولكنـــــــني أهواك أهواك

أهواك أهوى بك الأمـــــــــــــال ناضرة * والعيش مبتسماً والحسن ضحاكا

حسبت ورد الهوى زهراً يطالعـــــني * لكن تبينته جمراً وأشـــــواكا

حاولت جهدي أن أقصيك عن سمعي وعن بصري * فلا أحن ولا أصبو للــقياك

لكن ملأت فـــــــــــجاج الكون في نظري * فكل ما فيه مقرون بمـــــــرآك (6)

فشاعرنا يرتاد الضربين السابقين فمرة نراه لاهياً مجسداً لأوصاف المرأة الحسية،وأخرى مغنياً بحبه لهــا،ذاكراً دفقاتــه الوجدانية تجاهها،متأملاً في محراب جمالها الآخاذ .

فلسفة الحب عند محجوب :

الجمال له آسرة حميمة من المفاهيم الثقافية، في مقدمتها عاطفة الحب، وليس بين مشاعر الحب في النفس وبين حـــالات الانهزام والانكسار إلا سماكة نسيج عنكبوتي شفاف، قد تثقبه نظرة نجلاء، وقد تمزقه لمسة يد خرقاء. وهكذا قــد يتســرب الحقد والغضب لأي هفوة إلى منطقة الحب، فيختلط الحب بالحقد والغضب واللهو.

فإننا نواجه في الشعر العذري،بتجارب مؤلمة وأحاديث كثيرة عنه،توحي بأنه يتجاوز عاطفة الحب، ليتمظهر في رمــوز ودلالات نفسية أخرى تتشعب شعاب الحياة،غير الحب. فالشاعر متأزّم ممزّق، أزّمته الحيرة ومزقه الشك، وألــبّ وجدانــه الحرمان وأطبق عليه اليأس، فحمل سوطا وجدانيا– تمثل في الحب المكبوت – وضرب به، يريد من خلاله هدم هذا الواقــع المعتم المشكوك في جدواه،والذي يحيل بين الذات وتحقيق مطامحها،فلذلك تلوح القبلة كممثل للحب العــذري فــي شــفافيته ورقته،وإعطاء الشفاه حق التواصل عبر هذا الالتقاء الذي يخفف نار الاشتياق،ومن ذلك قال ابن الرومي (7) :

أعانقها والنفس بعد مشوقة ... إليها وهل بعد العناق تدانِ

وألثم فاها كي تزول حرارتي ... فيشتدّ ما ألقى من الهيمان

ولم يك مقدار الذي بي من الجوى ... ليشفيه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادي ليس يشفى غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان

إنّ استتار الحب عن المجتمع المحافظ، هو سبب اغتراب الشاعر– داخل وطنه – والاغتراب في الحب يتجلى في تباعد الشاعر عن الحب العفيف، وانشغاله بوصف محاسن المرأة الحسيّة، لإشباع حرمانه،والتنفيس عن مشاعره من خــلال هــذا النوع من العشق، وفي ذلك يقول محجوب :

كم رشفت الرحيق من كل ثغر * أجج القلب حرقة والتياعا (8)

أو يتوقف الشاعر في محراب العشق الجميل،وأحاسيسه سكرى،فليت له من قبلة تبرّد ظمأ قلبه ولهفــة فــؤاده، فيقــول محجوب:

وكم من قــبلة سكرى * وكم من عاشــق خبل

إلى قوله:

كلانا عاشق صفرت * لياليه من الـــــقبل

وناجى إلفه سحراً * ومن ناجاه في شغل

فهاتي قبلة ظمأى * لظمآن على عجـــل

وهاتي قبلة أخرى * فكل الخير في العــلَل

وإن أردفت ثالثة * فتلك مجاجة النحــل (9)

أو كالذي انتظر في لهفة وشوق أن يأتيه من الحبيب خبر، فكيف إذا جاء الحبيب بنفسه؟ قال :

أطيب الطيبات قتل الأعادي . . . واختيالي على متون الجياد

ورسول يأتي بوعد حبيب . . . وحبيب يأتي بلا مـــــيعاد

قيل لبعض العشاق:ما تتمنى ؟ فقال:أعين الرقباء ، وألسن الوشاة ، وأكباد الحساد. وقيل لبعض الأعراب:ما أمتع لذات الدنيا ؟ فقال ممازحة الحبيب وغيبة الرقيب.

قال بعض المحققين : النفوس جواهر روحانية ، ليست بجسم ولا جسمانية لا داخلة البدن ولا خارجة عنه ، لها تعلــق بالأجساد وتشبه علاقة العاشق بالمعشوق ، وهذا القول ذهب إليه الغزالي أبو حامد في بعض كتبه . (10)

فالتوقيع على هذه الشفاه الظمي بأحرف من نار، ولكن قبل ذلك لا بأس أن يبدأ بتقبيل الأنامل فيقول محجوب:

ولثمت أنملها أتوق إلى * تلك الثنايا الغر قد برقت (11)

لا تكفيه قبلة واحدة،بل يريد المزيد ، فقد أنهكه الظمأ،وأشعل نيران قلبه الشوق والتحرق للمحبوب ، فتمنـــى أن يضـــع على خدها قبلة يغار لها ثغر الحبيب من الخد،فقبلته باقية دوام الدهر لا تنمحي ولا تنسى ، فهي ألذ من الشهد،فيقول محجوب :

فقبلتها عشراً وما زلت ظامئاً * إلى مورد عذبٍ ألذ من الشهد

تمنيت لو أني على الخد قبلة * يغار لها ثغر الحبيب من الخد

فلا الفجر يمحوها ولا الليل قادر * فتلك لعمري قبلة العمر والخلد (12)

وضع محجوب لهذه القصيدة عنوان فلسفة التقبيل ،ولعله أراد أن يمثل صورة الحياة وقتذاك ، فهو ليس منً الشخصـــيات العبثية التي تتخذ من العبث فلسفة في الحياة، بقدر ما هو من الشخصيات المفعمة بالرومانسية المتنازعة بين هيمنة السياســة ودبلوماسية الكلمة،وفي ذلك يقول :

قالت وقد أمعنتُ في تقبيلها * ماذا بربك تنفع القبلات

أو تطفئُ الشوق القديم لتبتلي* بالشوق تلهب ناره الحسرات

فتصاعدت أنفاسها مشبوبة * وتعثرت في ثغرها الكلمات

وإذا الشفاه مع الشفاه تقابلت* عجزت لغات وازدهرت لغات

هاك الحديث عن القلوب مترجماً*باللثم إن اللثم فيه حياة

إلى قوله :

لغة الشفاه الصامتات بليغة* فيها جمال ساحر وعظات

والعارفون بسرها آياتهم * قبل تمازج بعضها الأهات

إلى قوله :

وخطفت كالطير المغرد قبلة * ضحكة لرنة وقعها النونات

إني أتزود القليل وربما * تشفي غليلاً هذه البسمات

أعرفت يا أختاه يوم فراقنا *ماذا تفيد الظاعن القبلات (14)

وقال :

ذه القبلة قد أودعتها * سرّ روحي فاحفظيها من ضياع (15)

إن خوف الشاعر من ضياع سر روحه من خلال هذه القبلة – هو الذي يحدد للحب أبعاده وقيمه وانتمائه، فهو لم يتحدث عن الحب، بمعناه العاطفي الذي يظنه الكثيرون، إنما تحدث عن معنى جديد حين جعله سر وعمق لهذه الروح.

وقال : قبلات الوداع رنت بأذني * فأثارت لواعج الأشجان (16)

يتمتع شاعرنا محجوب بنرجسية Narcissism وذاتية جعلته يتباهى بطاعتهن له – أي النساء–وتوددهن إليه ، فهــن رهن إشارته ، وطوع بنانه ،في دنيا الحب ، فهو يقول :

فإذا ما سألت كنت مجابا *وإذا ما أمرت كنت مطاعا (17)

وقوله :

زعم العواذل أنني عبد الهوى وجريت في حبي بغير عنان (18)

يتضمن الحب العديد من أنواع المشاعر والأحاسيس والدوافع ، والتي تعمل مجتمعة على تشكيل وعي محدد،وحالة ينجذب فيها الإنسان إزاء موضوع ما،وفي أغلب الأحيان يكون من الجنس الآخر،تحتوي كلمة "حب" على معاني الغرام والوجد والهيام والهوى،وكثيرا ما شبه الحب بالداء،وبعضهم شبهه ببذور النبات،لأنه بذرة تنمو وتترعرع وتنتج منها الأشياء .

تقول العرب إن المحبة أصلها من الصفاء ، وذلك؛لأن العرب كانت تقول في صفاء بياض الأسنان ونضارتها "حبب الأسنان "،كذلك قيل إن الصفاء مأخوذ من" الحباب" وهو ما يعلو الماء عند هطول المطر الشديد،ومن ثم فإن غليان القلب وثورته واضطرامه وهيجانه عند لقاء المحبوب يشبه الحباب عند سقوط المطر الشديد .

وتقول العرب بأن الحب مشتقة من الثبات والالتزام،ويبدو ذلك واضحاً في قول أحب البعير إذا برك ولم يقم،وحالة البروك وعدم القيام دلالة على أن المحب لزم قلبه محبوبه. لذلك نقول : فلان وقع في الحب .

الحب وأنواعه في ديوان" قلب وتجارب" :

الحب أوله الهوى،ثم العلاقة ثم الكلف ثم الوجد،ثم العشق،والعشق اسم لما فصل عن المقدار الذي هو الحب،ثم الشغف وهو إحراق القلب بالحب مع لذة يجدها،وكذلك اللوعة واللاعج والغرام ثم الجوى وهو الهوى الباطن والتيتيم والسبل والهيام وهو شبيه الجنون والعشق عند الأطباء من جملة أنواع الماليخوليا. (19)

وردت كلمات كثيرة تحمل معنى" الحب" ودرجته في ديوان قلب وتجارب للمحجوب،ولكن نجد أن كلمة "الحب " وجدت الحظ الأوفر في ديوانه،فما الحب الذي شغل محجوب ؟ ومن هي هذه العبقرية التي حركت يراع محجوب فصاغها شعراً ؟ وما هي تفاصيلها وسماتها ؟ وما فلسفة الحب الذي يريده ؟

1- الحب :وهو نقيض البغض،وهو غليان القلب و ثورانه عند لقاء المحبوب،ألا ترى معي أن القلب يضطرب،وترتفع حرارة الجسم عند لقاء المحبوب،فهاهو المنخل اليشكري يقول :

ولقَدْ دخلْتُ عَلَى الفَتَا ة الخِدرَ في اليومِ المَطيرِ

الكاعِبِ الحسناءِ تَر فُلُ في الدمَقْسِ وفي الحريرِ

فدفعْتُهَا فتَدَافَعَتْ مَشي القطاةِ إلَى الغَديرِ

وعطَفْتُها فتَعَطَّفَتْ كتعطُّفِ الظَبي البهيرِ

دَنَتْ وقالتْ يَا مُنَ خَلِّ مَا بِجسمِكَ مِنْ حَرورِ

ما شَفَّ جِسْمي غيرُ حُ بِّكِ فإهدَئِي عَنِّي وَسيرِي (20)

أما محجوب فقد ملك الحب قلبه،وليس لمن أحب هوان أو ضرر في حبه،والحب جبلة طبع عليها الإنسان السوي الذي لا يحتاج دليلاً على وجود الشمس،ولا سهراً يجبره على تأمل جمال القمر،فما الحياة في دنيا البشر بدون حب؟ ومن ذلك قوله :

ملك الحب عليه قلبه * ليس في الحب هوان أو ضرر

من ينافي طبعه الحب فلا * يعرف الشمس ولا يدري القمر

علّم الناس حجاهم قبلنا * إن في الحب حياة للبشر (21)

كما يعرف محجوب الحب بحالات نفسية تجتاح قلبه من الجفوة والرجاء والاشتياق والأمل في غد جديد ، فيقول :

إنما الحب جفوة ورجاء*واشتياق إلى لقاء جديد (22)

ومن عبقرية الحب أن يسرقك نوم العين،ويلهمك التأمل في ملكوت الله،فتناجي من تحب،ودموع العين تمهر هذه المناجاة في سبيل الوصول لذلك السر العظيم،وهذه مسحة صوفية عبقت ليل محجوب،وألهمته السهر والمناجاة، والجود بالدموع ، فيقول :

كان للحب صلاتي والسجود*في حنايا الليل والناس هجود

فتناجينا فما يدري الوجود* أي قلب كان بالدمع يجود

ذلك السر عميق ودفين (23)

أما جليل الحب و أحلاه عند محجوب، هو الذي تذوقه وعرف معسوله ، فلا ينكره،وهو من ضحاياه ،وإن تباعدت بينهما المسافات وعزّ اللقاء فيقول :

وكيف أنكر حباً ذقت ريقه * والناس تثبت في البلوى لترعاه

وهل ينوء بحب كان يعبده* من كان للحب أغلى ضحاياه

إني سأبقى على حبي وإن بعدت *دار الحبيب ولم أظفر بلقياه (24)

فالحب عند محجوب يبيح المحظورات والبوح المعسول،فهو سلطان يؤمر فيطاع،ويطلب فيجاب،لأن عطره عبق المكان،واستلهم الزمان،فلا ضير أن نجيبه ،متلما أن " ظاهرة الحب " نفسها قد أصابها التغير بفعل الزمن، فجفت، وأصبحت قاصرة على العلاقات الجسدية فالحب عند الآخرين جف وانحصر معناه في صدر وساق؟. فيقول :

ما ضر لو كشف المتيم ستره* وجرى حديث الحب في إفصاح

والحب سلطان تقدس شرعه * كم ذا يبيح الشيء غير مباح

لا عيب في حب تنزه قصده * وسرى كعطر الروضة الفواح (25)

فهو هذا الحب الصامد الذي طوع القلم واستعصى على الراقي :

قلمي فداك وهل يعز على الهوى *شيء وهل يشفي الصبابة راق (26)

فلعل محجوب أخذ استفهامه من شفاء الصبابة بوساطة الراقي من الشاعر القديم،الذي قال :

هل من جوى الفرقة من واقي ** أم هل لداء الحب من راقى

أم من يداوي زفرات الهوى ** إذ جلن في مهجة مشتاق

يا كبدا أفنى الهوى جلها ** من بعد تلذيع إحراق

حتى إذا انفسها ساعة ** كرت يد البين على الباقي (27)

فعهد وميثاق الحب وطيد عميد،مثل الشباب سعيد بهيج لا ينسى ولا يسقط،لذلك عمد شاعرنا بتكرار "أيهـــا الحـــب " ثلاث مرات ، والتكرار في حقيقته " إلحاح على جهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها ... فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها " : (28)

أيّها الحبُّ إنها نفثات * وشجون غمرن قلبا عميدا

أيّها الحبُّ ما نسيت فإني* ذاكرا العهد مبدئا ومعيدا

أيّها الحبُّ إن عهدك عندي * مثل الشباب كان سعيدا (29)

فجنة الحب يدخلها شاعرنا ليطفئ شوقه،ويشفي لوعته،حتى لا يظل شاكياً لمعاناة الحب وآلامه، فيقول :

جنة الحب فهل ندخلها * نطفئ الشوق ونشفي الحرقا

أم نظل الدهر نشكو حبنا * ونلاقي فيه ألوان الشقا (30)

وللحب في فؤاد الشاعر ركناً عامراً بالوفاء والإيمان :

إن للحب في فؤادي ركنا * عامرا بالوفاء والإيمان (31)

بهذا العمق الإيماني يسمو به حبه متأبطا فنه الجميل،متجاوزا كل قيود الزمان والمكان:

وسما الحب والفنون بروحي * عن قيود المكان والزمان (32)

فالبوح يكشف الحب ويفضحه ، بالرغم من إقامته لجدر الحذر والكتمان ، وإن فضح لن نتضجر ، فحلاوة الحب في معاناته :

ولن نبوح فإن البوح يفضحه * ولن نضيق فأحلى الحب أشقاه (33)

وأنا ذلك الوفي الأبي الذي لا يرضى الذل والهوان ، ولكن تنحني هامتي قبالة الحب،وارتضي طوعاً رقه وغله ، فيقول :

وأنا الذي حطم القيود وعافها * وأبى حياة الذل والإشفاق

والحب رق لا تمل قيوده * أنعم بغل الحب في الأعناق (34)

وفي هذه المرحلة التاريخية تغدو " سرية " الحب أمراً ضرورياً، لأنها جزء من طبيعة تلك المرحلة، ولأنها أكثر دلالة على الوفاء،ولكن شاعرنا أراد تحطيم القيود وتجاوز العرف الاجتماعي، وما هذا إلا لتمكن الحب من قلبه ومشاعره.

2-**الصبابة : هي** رقَّةُ الهوى والحب و الشوق والعشق والرأفة و الرحمة .

وفي ذلك يقول :

قلمي فداك وهل يعز على الهوى *شيء وهل يشفي الصبابة راق

الحب بمعنى رؤية الجمال وضروب الصراع في الحياة والمشاعر هو الملاذ الآمن، لأنه وحده رابطة يجتمع فيها القلم والمشاعر وبعض من رقية يستشفى بها من ألم الحب.

وقال:

وتصفينهم ودا ومحض صبابة وتدنين قاصيهم ألا حبذا القرب (35)

فالحب لحظة شبق، تضيع قبل أن تتحدد أبعادها أو يعرف الممارسان لها أحدهما الآخرفي كثير من الأحيان.

3-**الهوى** : وهو محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، وهو ميل النفس، وفعله هوى يهوي وتستخدمان للسقوط ، لذلك قال بعضهم : إن كلمة هوى في الحب مذمومة ، ويدللون على ذلك بقوله تعالى: " وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) [النازعات/40-42]

وقوله:

زعم العواذل أنني عبد الهوى وجريت في حبي بغير عنان (36)

فشاعرنا يجلس عند دار الهوى ثملاً ، يرقب الحسن والجمال رياناً متمايلاً.

وقوله :

جلست عندك يا دار الهوى ثملا أراقب الحسن ريانا ومياسا (37)

ولما كانت المرأة تفعل أي شيء من أجل إرضاء الرجل، فإن لديها ؟على عكس ما لدى الشاعر – قدرة على المصالحة التوفيقية بين الحب والجنس، في أغلب المواقف.

وهل يكتفي الشاعر من سهام الهوى ، وفي ذلك يقول :

يا عيون الهوى لكم ريع قلبي من سهام العيون تغزو شعابه

أثخنته الجراح حتى تنزى هل كفاه من الهوى ما أصابه (38)

4- **الوجد** : ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع. فالقلوب ترفرف حولها، وتتزوق لوعة الوجد من جمالها ، فيقول :

رفرفت حولها القلوب وذاقت لوعة الوجد من يدي كُوبِيد (39)

القلب يتأوه وجداً من فرط حبه،كشهي الأماني الحسان ، وأحلام العذارى الحالمات،فيقول في ذلك :

يعصر الوجد قلبه وغناه كشهي المنى وحلم العذارى (40)

5- **الهيام** : وهو وصول الحب إلى درجة الجنون. لم يذكر الشاعر في ديوان قلب وتجارب سوى زينب فلعلها ملهمته وربة أشعاره ورمز ومقياس لتجربة شاعرنا الوجدانية، فقال :

هذا الهيام بزينب وبحسنها وبكل هيفاء تحب وتعبد

فهي التي دون سواها يجهد نفسه في عشقها وهيامها ، ويستحث نفعها ويرصده ، فيقول : أنت التي من أجل حبك أجهد ما غير نفعك أستحث وأرصد

كيف يرى شاعرنا هذا الهيام ؟

ما أراه إلا هيام عارم بالنفس يستصغي لها ويتجرد (41)

6- **المتيم:** هو ذهاب العقل من الهوى ، يقال: تامه الحب وتيمه، أي عبده وذلله.

كثيرة هي الليالي التي أسهدت جفن متيم ،فظهر كصاح وهو ليس بصاح،ماضره لو كشف عن حديث الحب في إفصاح وتجرد ،فقال :

كم ليلة أسهدت جفن متيم فبدا كصاح وهو ليس بصاح

ما ضر لو كشف المتيم ستره وجرى حديث الحب في افصاح

7-**العشق** : وهو تجاوز المقدار في الحب فرط الحب – " العِشْقُ فرط الحب وقيل هو عُجْب المحب بالمحبوب يكون في عَفاف الحُبّ ودَعارته " (42) .

كل شيء يثير روعة وجمالا ، وأنت متمنع ، ما ذنبنا لو عشقناك ،وكأنه أراد أن يتحدي و يروض تلك الفاتنة كثيرة الصدود :

وقال :

يا كثير الصدود ماذا علينا لو عشقناك يا كثير الصدود (43)

فبعد أن تأتى له عشقها ، أراد أن يظهر هذا الانتصار والترويض الجميل ؛ ولكنها كانت تمعن في التخفي والتستر فقال :

وكيف عشقته ما زال سرا اكشّفه ويمعن في التخفي (44)

ولكنها تتشاغل عنه ، وتخرج في صحبة أمها ، ويشير لها أن تترك أمها لحظة وترحم عشقه وتلبي نداء قلبه ، فهل يا ترى أجابت ؟ فقال :

أتركي أمك هذي لحظة وارحمي العاشق من يحنو عليك (45)

وقال عاشقاً وهو يصف هذا النهد الطامح الذي تكور وتطاول في شموخ ،واستعصى على العشاق ، فأصبحوا ما بين صرعى وساجدين يرجونه ،واستمالتها نفوس الأحباب عند ذكر حال الصدر إذ ذكر النهد والصدر ونشر عناق الأشواق، فقال :

ضاق القميص بطامحٍ تحت القميص له شبوب
نهدٍ تكوّر مثل حقّ العاج توّجه اللّهيب
لو كنت أملك أمره لتفتّقت عنه الجيوب
ومضى يطاول ما يشاء وتستجيب له القلوب
ما بين صرعى كبّروا والساجدين لهم وجيب
يا نهدها ماذا جنى عشاق حسنك هل تجيب ؟ (46)

8- الجوى والكلف :

الجوى : شِدَّةُ الْوَجْدِ مِنْ عِشْقٍ أَوْ حزن، أو تحول الحب إلى داء طويل الأمد.

قال :

أي قلب من الجوى لايذوب أي دمع عصيه لا يجيب (47)

إن الحب قد يكون قوة تبدد الحزن، وتسقطه من نفس الشاعر كما تسقط الآوراق عن الشجرة، ولكن هذا شيء آني، حين يقترن كل ذلك برؤية الحبيب،فإذا غاب يعود الحزن وعصي الدمع .

وقال :

ويمضه الشوق المبرح والجوى ويظل يرصد في الظلام سناك(48)

الكلف: وهو الولوع بالشيء مع شغل القلب ومشقته

قال : ولقد شقيت ببعدها كلفاً وسعدت بالقربى كما سعدت (49)

ما كان بيننا من البعد دلالة شقاء وبؤس، أما كان بيننا من القرب فهو دلالة سعادة وهناء.

لم يكتف شاعرنا بالصورة الحسية فقط في حبه ، وإنما جال بوجدانه حول فلسفة الحب وطهره ، وفي ذلك يقول :

ذاك حسبي وحسبها فهوانا حبٌ طهر مقدس الوجدان (50)

فالحب عنده عهد وميثاق أكيد ،تذهب الدنيا ويبقى عبقه الفواح ما بقي في ذكرى الحبيب :

هدية العطر كانت
ميثاق حب أكيد
تذهب الدنيا ويبقى

أريج الزهر رطيبا
كلما باعد دهر
شمتُ في العطر حبيبا(51)

فحبه ثابت لا فكاك منه ، وفي ذلك يقول :

أحكمي قيدك أو لا تحكمي نحن من حبك لا نرضى فكاك(52)

فالحب، لم يعد ينقل عاطفة مفردة بسيطة، وانما ينقل غابة متشابكة الغصون من العواطف والمشاعر.

خاتمة :

إن تجربة الشعر الوجداني عند محمد أحمد محجوب ،تبدو شيئاً مثيراً للدهشة والعجب،حقاً إننا نظلم النص الإبداعي كثيراً لو تخلّينا عن عدد من الإجراءات والمؤثرات المتوزعة بين ظرف تاريخي ، وحدث سياسي ، ووضعية اجتماعية، ومناخ ثقافي ، وعلاقة ذلك بمقتضيات الأدب النصية المتمثلة في أصوله الفنية ، وغيرها من إجراءات ومؤثرات تهدف إلى إدراك أدبية النصوص الفنية ،وتذوقها ، والإحساس بما فيها من جمال.

فحقاً استطاع محجوب أن يقدم تجربة وجدانية شفيفة أثرى بها مكتبة الشعر السوداني، فالتقت دبلوماسيته الرصينة بشاعريته الملهمة ، فأخرجت هذه الأشعار من كنانة رجل سياسي وقانوني ، استطاع أن يرسم هذه الملامح العشقية التي عبرت أصدق تعبير عن جمال وأصالة نفسه ، وأنه لم يشذّ عن شعراء عصره ، بل كان أثرهم حضورا في المشهد الشعري الوجداني .

فمن الوفاء لشاعرنا أن تجد كتاباته النشر والدراسة ،وأن تحظى أشعاره بالذيوع والانتشار داخل وخارج الوطن .

المصادر والمراجع :

(1)،(2) محجوب عمر باشري (1981م)- رواد الفكر السوداني – ط1- دار الفكر- الخرطوم – دار العالم الإسلامي – بيروت – ص 300-304.

(8)،(9)،(11)،(12)،(14)،(15)،(16) ،(17)،(18)،(21)، (22)، (23)، (24)، (25)،(26)، (29)،(30)،(31)،(32) ،(33)،(34)، (35)، (36)، (37)، (38)، (39)،(40)،(41)،(43)،(44)،(45)،(46)، (47)، (48)، (49)- (50)-(51)-(52) محمد أحمد محجوب (1999م)- ديوان قلب وتجارب -دار البلد – الخرطوم – ط2- ص- 5-49،48 -54-61-85،84-112-126-6-8- 152-71 -76-56-67-57- 88-120-127-128-56-58-97-18-50-51 -31-25-94-100-105-68-171-46-54-128-110-89.

(3)،(4)- د. عبده بدوي (1981م) – الشعر في السودان – عالم المعرفة – الكويت – ص- 163-163.

(5)-إبراهيم عمر الأمين (1981م) – ديوان رجال خالدون – مطبعة نفرتيتي – الإسكندرية- ط1- ص64 .

(6)- إبراهيم عمر الأمين (1991م) – ديوان تحت اللواء -الشعر في قلب المعركة – طبعة دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ط1- ص69

(7)- أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي(2003م)- الإمتاع والمؤانسة - تحقيق : محمد حسن محمد حسن إسماعيل – ط1- دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان – (240/1). راجع- أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (1978م)- الأمالي في لغة العرب - دار الكتب العلمية - بيروت – ص(108/1) .

(10)،(19) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي (1998م)- الكشكول ــ تحقيق : محمد عبد الكريم النمري – ط1- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان – (306/1) ،(333/1)

(13) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي (1986م)- المستطرف في كل فن مستظرف - تحقيق : د.مفيد محمد قميحة- ط2- - دار الكتب العلمية – بيروت – ص- (351/2).

(20)- الأصمعي (1964م)- الأصمعيات – تحقيق أحمد مجمد - شاكر وعبد السلام هارون – دار المعارف- مصر – ط2- ص60

(27)- أحمد بن المقري التلمساني (1997م) - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق : إحسان عباس – دار صادر- بيروت - لبنان – ص(34/1).

(28)- نازك الملائكة (1973م)- قضايا الشعر المعاصر – دار - العلم للملايين – بيروت ط7- ص276.